سلسلة قصصية

المدينة المنسية

نور هشام عليان

سلسلة قصصية

المدينة المنسية

نور هشام علياء

2023

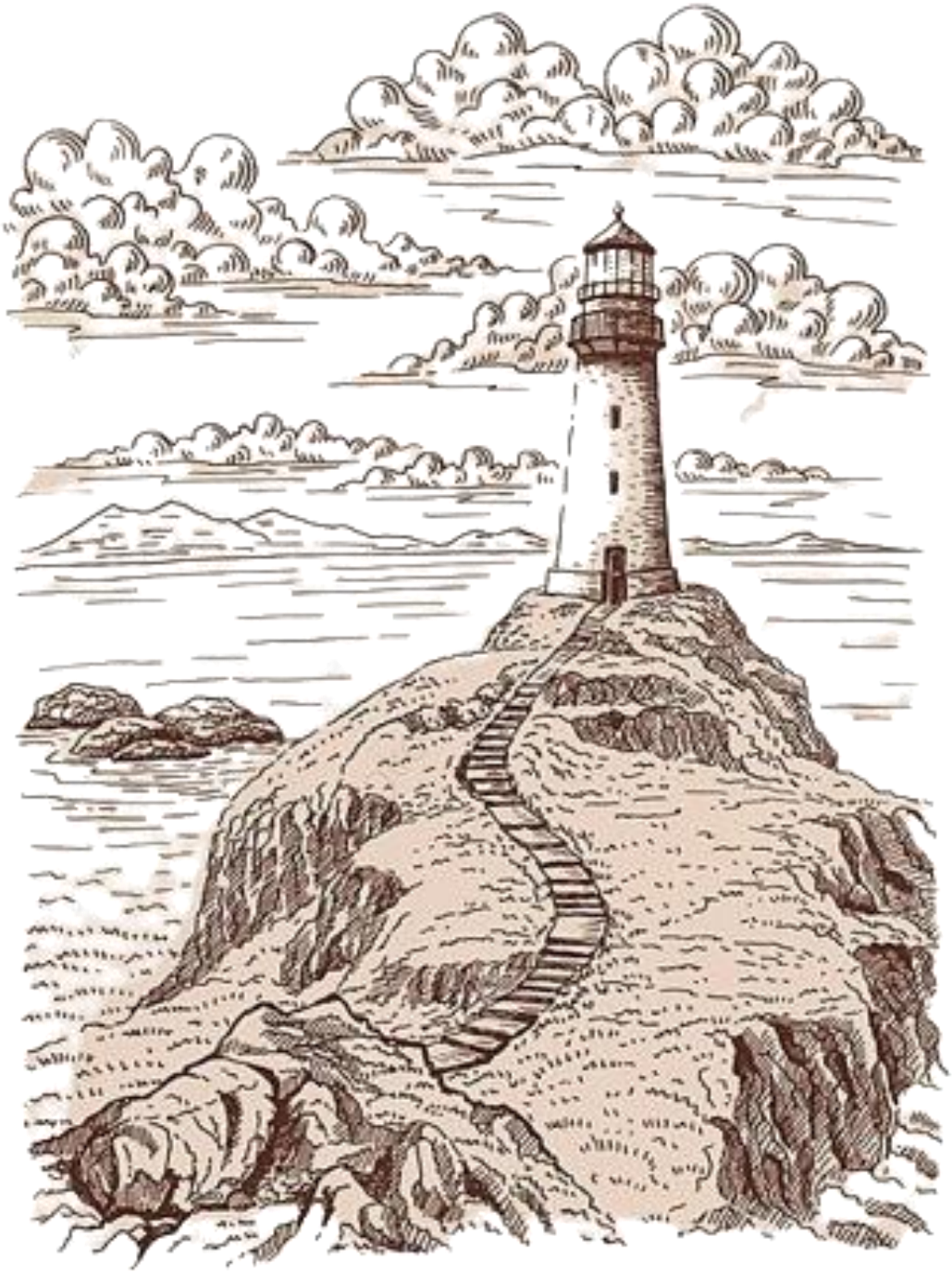

ماذا تعرف عن قصص الخيال؟

سأخبرك المختصر:

"إنها الواقع عندما يغير ثوبه"

الواقع عندما لا نستطيع الإفصاح عن حقيقته

ها هي تتسلل ذا وكأنها لص محترف، امتهن الانقضاض على الظلام لإزالته أبديا، إلا أنه وفي كل ليلة يأبى الرضوخ فيعاود الظهور، وتتكرر الوتيرة دون كلل أو ملل، وحينما يصعد هذا الشعاع ليبسط نفسه مداد الأفق، لينساب أسفل الأمواج ويقتحم المنازل ليصل لعينيها الراقدتين بهدوء فيعكر صفو هدوئهما، فتبدأ الأجفان باستعادة رباطة جأشها وتفتح عيونها الناعسة بثقل، وتقول: كم هو محدود وقت الراحة، وكم هو سريع العبور والمرور !سرعان ما تغفوا حتى تستيقظ ...على كل الأحوال صباح الخير يا أنا هذه هدية جديدة فها أنت تعيشين صباحا جديدا.

قالت ذلك وهي تدفع الغطاء بعيدا لتنهض من السرير وتفتح النوافذ على مصرعيها، لتمر نسمات الصباح مراقصة شعرها على أنغام الموج الهادر.

لم تكن لتفضل العيش في هذه الحياة الروتينية ،إلا أنها تتبع هذا التكرار طواعية دون وعي، وما إن تدرك هذه الحقيقة حتى تندفع لتجوب الشاطئ بحثا عن أمر مختلف.

لطالما أخبرتها صديقتها أن الاختلاف الذي ترجوه محض قصة في فيلم خيالي لا وجود له، إلا أنها ولو بالخيال تفضل أن تترّفع عن واقع مطفأ.

همست لنفسها بعد تنهيدة فرّغت ما يجول بصدرها من ضيق وكبت: ما هذه الحياة الرثة؟ تركت العائلة رغبت في التمرد وانشققت عنهم مخالفة أمر والدي بالبقاء ثم قالوا السعادة في المال فعملت جاهدة حتى جنيته، وها هو معي لكنه لا يغير من الحال شيئا، لا أنكر أنه أفضل من أن أبقى بائسة... فها أنا على الشاطئ أرتدي أفضل الثياب وأثمنها ولا أن أكون في المنزل حزينة على سرير متهالك وبملابس مرقعة ...ولم أعثر على السعادة ولم أشبع الفضول ولا زالت هذه الدنيا لي سيئة!

عصفت الأمواج بعلوا شديد فتراشقت القطرات لتبلل جزءا من ثيابها فتبتسم بخفوت ويهدأ صوتها، إلا أن مرّ شيء لامع من أمامها، لتقول:

ما هذا الذهبي هناك ؟

لا بد أن أحداهن أضاعت قلادتها الذهبية وهي تسبح، لكن مهلا قلادة وتطفوا؟ أيطفوا الذهب في الماء؟

تجاهلت تساؤلاتها وأخذت تسبح نحوها بهمة عالية وفضول مُلِّح، لتضحد الأفكار التي تكفُّها عن فعلتها هذه، لكن لا شيء يردع الفضول سوى المغامرة .

ها هي تقترب من مصدره ، تكاد تصل ، تمدّ يديها لتلقطه فيغرق ، لتندفع خلفه بتلقائية بعد أن أخذت نفسا طويلا ، وتعوم خلف اللمعان الذهبي ، الماء باقترابها منه يشكل تيارات قوية ، وهو يستمر في التوجه نحو القاع حتى بدا لها أنه توقف ، ولكنه باغتها فانقض عليها واقترب منها ولم تستطع أن تبتعد ، وسرعان ما تبعثر تركيزها وفضولها ورأت الحياة كشريط يمر أمامها ، أهذه لحظة الموت ؟

هل انتهى كل شيء ..؟.لا عودة ، لا نهضة ، لا زلة ولا حتى عثرة ، لا نجاح ولا ضحكة ، الآن انتهت القصة ...!

لم تفعل الحياة بنا هذا ؟

لا تلقانا بالفناء إلا عندما ندبر من طريقه ، ونبتعد عنه حتى نندمج في الحياة وننساه تماما .لكن مهلا هذا نور هذا هو اللمعان ذاته ، أنه يقترب ويقترب أخذت تحاول الحراك فترى أنها مقيدة ،تصرخ فتجد صوتها عقيما لم يعد يقوى على إنجاب الكلام ، فتخاف ، وترتجف ، وتبكي بصمت مفزع ،وإن

الصمت لأشد مهابة من الصخب ، وعندما اصطدمت به استيقظت فزعة ، تلتقط أنفاسها وترفع خصلات شعرها المبعثرة ، وتقول : يا له من حلم مفزع !

تتلفت يمنة ويسرى فلا تتعرف على المكان الذي هي فيه ، تنهض بتثاقل وتنظر بتفحص علّها ترى معلما يردها عن الضالة ، فلا تلحظ سوا الشمس تنكّب تدريجيا على أحضان البحر في الأفق الواسع ، وبتعجب وصوت مرهق :

-يا الهي مضى كل هذا الوقت وأنا على الشاطئ نائمة !

لكن أين أنا ؟ أنا حتى لا أذكر أخر ما حدث لي ، آه يا شدن ستموتين يوما ما وأنت تلاحقين فضولك هذا !

فتلفتها تلّة مهيبة تحيط بها الغربان ويعلوها برج بدا أنه منارة ، لتردف :

منارة ؟!

أنا منذ مدة أقطن هنا وبالرغم من ذلك هذه اول مرة أسمع أن هناك منارة قريبة مني ! تبدوا ممتعة !

هل سأعود لأفوّت على نفسي مشهد الغروب البهيّ من على تلك التلّة ؟! بالطبع لن أفعل .

مضت وأخذت تهرول نحو وجهتها القادمة ، حتى وصلت أخيرا عتبات الدرج الذي يؤدي لأعلى المنارة ، ولم تتردد أبدا في التقدم ، العتبة الأولى والثانية ، وتتابعت العتبات وهي تشق الظلمة متوجهة للأعلى وفي نفسها تتساءل عن طريقة بناء هذا المكان ، فلا نوافذ هنا ، ولا كهرباء ، يبدوا أن بانيها منغمس في الظلمة ، لتهتف بفرح : أخيرا وصلت القمة !

كدت أفوت الغروب ...

ولم تكمل جملتها بل جزعت وأطرافها من شدة الخوف ارتعشت ، وتناقص الهواء فجأة فصاحت رأتها فشهقت ،وقالت بعد مضي مدة ليست بالهينة :

ما هذا ؟ لماذا تلوّن ماء البحر بالدماء ؟ لماذا تبدّلت الأسماك بالاشلاء ، من فعل هذا ؟ ألم يكن ماء البحر عذبا ؟! رأيته بكلتا عيني فمن الذي غيّره ؟

وهل يستطيع أحد ارتكاب هذه الفوضى في وقت قصير ؟

عادت بخطواتها للخلف ، أرادت أن تتراجع أرادت أن تبتعد من أمام هذا المشهد ،فتعثرت قدماها فسقطت ، احتضنت نفسها بكلتا يديها والدموع تنهمر من عينيها ، الفزع يطوّق ملامحها ، حاولت النهوض مجددا ، فلم تستطع ، استخدمت كلتا يديها لتجرّ جسدها المثقل فاستدارت لتجدّ الباب من خلفها مقفل ، انقضت عليه لتفتحه ،ولكنه لم يستجب ، هوت جاثية على الأرض وبصرها في المنظر المحيط بها شاخص ، رفعت يديها بالتدريج لتمسك برأسها ثم بدأت تنتحب في فزع ، وما أشد المخاوف للمرء مهابة أكثر من كونه يشهد صراخه لا يسمع ، يغشى ملامحه الفزع ولا يرى في وجهه الفزع ، أشد المخاوف لنا عندما يهبط الظلام ونحن غارقون في الوحدة .

بعد فترة من العويل قررت ان تحاول مجددا ، رفعت جسدها مستندة على الجدار الزجاجي ، والتفتت لعل الدموية اختفت فخاب ظنها ، استندت على الجدار وبدأت تدور مع المكان ، حتى شهدت كلمات نقشت على الجدار مكتوبة باللون الأحمر القان :

(المدينة المنسية ...حيث تبدّل الجواهر بالدماء ..)

وما إن لامست الكلمة حتى تحركت الأرض كاشفة عن درج يقود للأسفل ، وعاد الأمل ليتراقص أمامها من جديد ، وأخذت بالمضي في كبد الطريق المظلم ،تريد النجاة ، تريد الخروج ،واندفعت كلما تذكرت ذلك لتزيد من سرعتها ، حتى وصلت لنهايته بان لها نور خافت يخرج من سراج معلق على جدار رثّ ،وتمكنت من رؤية بابين كتب على لافتة بينهما (بعد أن أطل العالم من على القمة ورمق

الجواهر سكبت الدماء) ،وقفت تتأمل المكتوب ثم اختارت الباب الذي في اليمين ، ومرّت به ،كان ممرا كالذي كانت فيه ،والظلمة تعجّ بالمكان ، تحسست الجدار بيديها وأخذت تسير معه ، حتى بدأ نور ما ينفذ من أخره ، تركت الجدار وأخذت نحوه تجري ، وصدرها من الوهن يعلوا ويهبط بتسارع ،حتى وصلت النهاية ، وما إ، أرادت اجتيازها حتى تعثرت بشيء ما وسقطت ، نهضت تنفض الغبار عن ملابسها وترمق ما تعثرت به ، فرأت جثة شخص ما ملقاة على بداية الطريق ، فجزعت ، ونحو الجهة التي تقود لغير الممر نظرت ، مدينة هواؤها رماد ، الركام فيها على كلا الجانبين تكوّم ، أخذت تمضي فيها ، تجوب ما بقي من الشوارع .

شدن : ما هذا المكان ؟ كيف وصلت إلى هنا ؟ ومن فعل كل هذا ؟

أين سكان هذه المدينة ؟

ولم تكمل كلمتها حتى رأت طفلا صغيرا يركض بسرعة ، لتجري بكل ما فيها تابعة إياه علّه يجيبها على الحيرة التي تكبدتها ،تبعته فوجدته قد وقف أخيرا ، اقتربت منه بفرح : مرحبا يا صغير ما الذي تفعله ...

ليقاطعها صراخه : أمي ...

لتتنبه للمكان الذي يوجه إليه نظره ، فترى امرأة ممددة على الأرض في وسط بركة من الدماء ، فتضع يديها على فمها لتكتف شهقاتها .

فيقول الطفل :أرجوك أمي تماسكي ...أرجوك

فتبتسم الأم لصغيرها وتقول : أنا أرى أباك يا بني ، ها قد أتى ليأخذني حيث ذهب

فيصيح في أمه : خدوني معكم ، اذهبي معه ولكن معك خديني ، امي ارجوك لا تتركيني .

فتبتسم له مرة أخرى وتقول : هناك يا بني ، لن نحزن أبدا ، لن نتعب ، وسيكون لنا منزل آمن ، هناك يا بني لن نشقَ وستلعب كما شئت ، وسيأتيك كل ما شئت .

هناك جنّة يا بني ..فاصمد واصبر

وشهقت فماتت

ليصرخ الطفل صرخة غضب ، فاقترب منه لأواسيه فأرى في عينيه ثورة ، ونار تلتهب ، قلت له : لا تبكي سيكون كل شيء على ما يرام .

فابعدني عنه ونهض ، وقال: كلنا في هذه المدينة نودّع بعض ، لقد تغيّرت الحياة فجأة وكل ما امتلكناه سُلب ، ولكن هل ظننتِ يا انسة أنني بذا هزمت ؟

والله ما زادني هذا الفقد إلا يقينا وقوة ، والله لانتقم .

فقلت : ممن تنتقم ، يا صبي حدثني ما هذا المكان ما هذه الأرض وأين أنا ؟

فلم يجب

وابتعد بين الركام فتبعته

وجدت الناس أخيرا لكنهم قتلى ، وجدت جثثا ممزقة وجماعات يحاولون لملمة أجزاء من اخرين متناثرة ، نهضت فصرخت فيهم : من أنتم ؟

فلم يلتفت لي أحد فهرعت اركض لغير ذي مكان حتى سقطت ، رأيت هذه المرة رجلا يجلس بين الركام فتحركت نحوه ببطء ، فالتفت إليّ

فقلت : يا عم ما لي أرى الناس لا يجيبون

فيقول : اتركي لكل ذي هم يا صغيرتي همه

فقلت : أين انا ؟

فبدا عليه الدهشة ليرد : أنت لست من هذه المدينة ؟

جلست بمقربة منه وحدثته بقصتي ، فقال : حسنا سأخبرك أين انت ...هنا المدينة المنسية ، حيث كانت قديما مركز ازدهار ومتعة ، أرض استثمار ورفعة ،وكانت تسمى قديما عزة ... ولكن في يوم ليس ببعيد اجتاحت ارضنا اسراب من وحوش ، أنيابهم مخيفة مخالبهم كبيرة وأجسادهم يغطيها الفرو رؤوسهم كالقردة ، لهم اسنان تشبه اسنان القروش ، وكانوا متعطشين لنهب أرضنا فنهبوها وشربوا دمائنا ، دمروا المنازل واقتلعوا الشجر ، ولم يسلم منهم جدار أو حجر ، وبالرغم من بطشهم بنينا حاجزا حول جزء من مدينتنا واستقر بعضنا هناك ، حميناه بما معنى ولكن هناك منهم من تسلل إلى هنا .

قلت بخوف :ألا يوجد مخرج ؟

ليرد :ألو كان هناك واحد لوجدتنا هنا ؟

قلت : هل سأموت هنا ؟

فقال :لتعيش معنا

ردت : لا اريد ان اراكم حتى ...

وهرعت تعود أدراجها من حيث أتت ، اجتازت الممر وصعدت السلالم ووصلت قمة المنارة حتى رأت العبارة تغيرت إلى (كلهم غضو الطرف ...لا باس) وفتح الباب وغادرت ،ولم تفلح محاولات العثور عليها مجددا ،حتى اتهم الناس إياها بالجنون ، وانتهت قصة المدينة الياقوتية لشدن لكنها لم تنته لأهلها.

يتبع...